

## السكون في الظلام

للأستاذ أحمد أمين

ما ألدّه ، وما أهنأه ، وما أحلاه !

يذهب بالأوصاب ، ويرد العافية الى الأعصاب

فترة سكون في ظلام يجب أن يقضيها كل إنسان في كل يوم - وإذا كان كل الناس في حاجة اليها فرجال الفكر اليها أحوج ، هي راحة من عناء مجهودهم ، واسترداد لما فقدوا من رءوسهم ، واسترجاع لما قطنوا من عصارة عقولهم

وهي فوق ذلك أدعى لصفاء الذهن ، وحمية التفكير ، وجودة الانتاج - فالبنفرة لا تنبت في جلبة وضوضاء وضياء ، إنما تنبت في جوف الأرض ، حيث لا تراها عين ، ولا تؤذيها حركة ، وحيث تستمتع بكل مافي السكون والظلام من قوة ، حتى إذا تم نضجها خرجت الى النور والهواء والحركة بساقها وفروعها ، لا بنفسها -

لاوردة تفتن بجملها ومنظرها وعبيرها قبل أن تدفن بذرتها ، يجب أن تمر بها أيام وأيام ، تشمر بنفسها ولا يشمر الناس بها ، وحتى إذا أعجبت الناس ونفحتهم بنعيمها يجب أن يبقى أصلها نمنماً بظلامه وسكونه ، فإذا أفلقت مضجعتها ، وسلبتها هدوءها سلبتك محاسنها

وكذلك كل حي لا بد أن يموت ليحيا ، وهل النوم إلا ضرب من الموت ، ونوع من الفناء . دع الحى يحيا أياماً من غير نوم تره وقد تهدلت أعصابه ، وتهدمت قواه ، وقرب من الفناء الأبدى وليس يكفي النوم للمفكر ، فهناك ضرب خير من النوم هو أوقات يمضيها في هدوء وسكون وظلام ، يكون فيها منتبهاً ناعماً ، شاعراً حالاً ، يلد فيها لذة النوم ، كما يلد لذة الصحو ، يتعرض فيها لتفحات الله ، ويلعب في روجه قبس أشبه ما يكون بالالهام ، وتأتيه الفكرة الناضجة ، أو الخطيرة الكاشفة ، أو اللذة الدالة ؛ فتكون خيراً من ساعات وساعات يقضيها في العمل ، وبين المحبرة والقلم ، والصحف والكتب

قرأت مرة أن متعلماً كان يقص على معلمه أنه يصبح مبكراً فيقضي ساعات في استذكار دروسه ، وساعات في تعلم لغات

أجنبية ، وساعات في أخذ دروس جديدة في علوم مختلفة ، حتى يمضي جزء كبير من الليل فيذهب الى فراشه وقد أنهكه التعب ، وأخذ منه كل ما أخذ ، فقال له أستاذه - ومضى تفكر ، وأين تجد نفسك ؟

وهو سؤال له دلالة ومفزاء ، فأكثر الناس لا يفكرون ، وإن ظنوا أنهم فيما يقرءون ويكتبون يفكرون ، وأكثر الناس يفقدون أنفسهم في ثنايا صحفهم وكتبهم ولأمر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم « يخلو بغار حراء ، ويتبهد فيه الليالي ذوات العدد يتروذ لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود أمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء »

في غار حراء حيث السكون والظلام ، بعيداً عن الخلق قريباً الى الحق ، قد انقطع عن العالم وضوضائه ، والدنيا وألعيها ، قد صفت نفسه من صفاء محيطه ، ووجد نفسه فوجد ربه ، وتعرض للالهام فجاءه الالهام ، وتبياً للوحى فنزل عليه الوحى

\*\*\*

لكم تمنيت أن يكون للمسلمين تكايا أو خافقات في أمكنة نزهة منقطعة ، ليست من هذا النوع الذي يأوى اليه الماجزون والمطلون ، والذين يأكلون ولا يعملون ، ولكنها من طراز حديث يهرع اليها من أزدان أن يستريح نفسه ، ويريح قلبه ، ويسترد هدوءه ، بمد أن ألتفتها ضوضاء المدينة ، وجلبة الحياة المضربة - تكون مستشفى للنفوس بجانب مستشفيات الأبدان ، ويترهب فيها من أضواء العمل ، وأعياء الجهد ، رهبانية مؤقتة يجدد فيها نفسه ، ويفغذي بهدونها وسكونها عقله وحسه ، ويثبت إلى العالم خلقاً جديداً كما يثبت النوم الحياة - إذن نقلت أخطاء الناس ومظالمهم ، فأكثرها مبعثه فساد الأعصاب - وإذن نقل إلحادهم فأكثره منشؤه الانهاس في المادة وشؤونها ، فإذا تجرد المرء منها زمناً وخلا بنفسه وأتيح له فرصة التفكير في هدوء وسكون وظلام تحرك قلبه للمبادأة ، ونزع الى الايمان ، فاستجاب لفطرته ، واستمع لطبيعته - وإذن نقلت مطامع الناس ، وتكاليهم على الحياة ، فحياة الهدوء والسكينة توحى بأن الحياة ظل زائل ، ومرحلة مسافر

لقد اعتاد الناس أن يقرءوا من متاعهم الى المقاهي والفنادق في الهواء الطلق ، وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات والبحار ،

المنطقى العلمى فى البحث والتفكير ، إنما أعنى ذلك الضرب الذى عناه القرآن بمثل قوله : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » هو نوع من العقل قد مزج بنوع من الشعور ، وقد امتاز به الشرق على الغرب قديماً ، ومن ثم كان مبعث الأديان ، ومصدر الالهام

فى هذا الضرب من التأمل يجد الانسان نفسه حيث لا يجدها فى هزل ولا جد ، وفيه يعرف نفسه على حين أنه يعرف غيره أكثر مما يعرف نفسه ، وفيه يجلس الى نفسه ويصادقها ويصارعها على أن أكثر الناس يجالسون الناس ولا يجالسون أنفسهم ، ويصارعون الناس ولا يصارعون أنفسهم ، وهم أعداء لأنفسهم

وأظن أن فى الاستطاعة أن يوضع برنامج متسلسل للتأمل كبرنامج القراءة والكتابة وتعلم اللغات وتعلم العلوم ، يبدأ فيه بألف باء التأمل ، وينتهى بيائه إن كان له ياء ، ويخصص له حصص يومية كحصص المواد العلمية ، وإن كانت حصصه تمتاز بأنها قى ميسور كل إنسان ، ليست تحتاج الى مدرسة يتردد عليها ، ولا إلى معلم يأجر ، ولا أدوات وكتب يتداولها ، إنما هى من قبيل تربية النفس بالنفس - وليست تحتاج إلا الى صبر واعتناء وعرفان بكيفية السلوك

أول دروسها أن تخلو بنفسك ، ولا يكون ذلك إلا فى هدوء وسكون ، وخير أن يكون فى ظلام . ثم تجرد فى هذه الحصة من شواغل الدنيا وهمومها ؛ واستعرض نفسك من حيث بدئك كيف تؤذيه ييمض عادتك ؛ وهل تدبره تدبير عاقل حكيم ، أو مستبد جاهل ، وما خير الوسائل لاصلاح ما تقع فيه من أغلاط ؟ وتدرج من هذا الى التأمل فى ناحية أخرى نحو علاقتك بعقلك ، وعلاقتك بالناس واستعراض ما يكون منك ومنهم

وارق الى خطوة ثالثة تسائل فيها نفسك ، ما غايتك وما مبادئك فى الحياة ، وهل وضعت لها خططاً ؟ وما مقدار تقدمك اليها أو تأخرك عنها ؟

سيسلك ذلك - من غير شك - الى خطوات أوسع ، وتأمل أعمق حسب جهتك واستعدادك ؛ وستكون لك فى النهاية فلسفة لا من جنس فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ولكنها فلسفة

ولكنها كلها تفيد الجسم ولا تفيد - كثيراً - الروح والنفس ، هى من نوع المستشفيات البدنية لا المستشفيات الروحية والنفسية ، فيها - عادة - كل مظاهر المدينة وتمقيدها وأخيلتها وتكاليدها ، ففى لا تفنى غناء صحيحاً فى الملاج النفسى والروحى - إنما يفنى هذا الغناء أنواع من المعاهد والمؤسسات قد بنى على أساس نفسى وروحى لا يعبأ بزخارف المدينة وزينة الحضارة ، يريح النفس من عناء التكليف والتقاليد ، ويسمو بها فوق المواضع والمصطلحات ، فيتجد النفس راجتها الطليقة ، وتمود إلى طبيعتها الحرة ، وتسبح فى تأملاتها ، وبذلك تسترد حيويتها ونشاطها

\*\*\*

فى سكون الظلماء يرى الانسان بينه ما لا يراه فى الضياء ، ويسمع بأذنه ما لا يسمع فى الضوضاء ، على أنه هو لا يرى بينه غيب ، ولا يسمع بأذنه غيب ، بل كل شىء فيه يسمع ويرى ، يفهم منطق الطير ، ويتذوق موسيقاه ، ويدرك معانى المياه فى خريرها ، والرياح فى هبوبها ، والأشجار فى حفيفها - فكأنه منح من الحواس أضعاف حواسه ، وملك من الملكات ما لا يمد بجانب ملكاته - وكان عالم الصخب والجلب يفتشى عينه ، ويثقل سمعه ، ويبلد عقله ، ويثلم ذوقه ، فلئن كان الصوت فى عالم الحس له حدود ، فاذا قلت تموجاته عن حدوده أو زادت انعدم السمع ، فليس فى عالم الروح حدود للصوت ، ولئن كانت العين فى عالم الحس لا تدرك من الألوان إلا أقلها ، وتمجز عن إدراك أكثرها ، فبعض الفكر لا يحدها حد ولا يميزها لون ، ولئن كانت عيننا البصيرة لا تبصر إلا فى ضياء ، وأذننا لا نسمع إلا من قرع هواء ، فنيوننا وأذاننا الروحية تستمع بالسكون والظلماء ، أكثر مما تستمع بالضوء والهواء

\*\*\*

إلى لأرى لهؤلاء الذين يضيئون كل حياتهم فى هزل ، بل أرى كذلك لهؤلاء الذين يقضون نهارهم فى وظائفهم وأعمالهم . ثم ينصرفون الى لهوم حتى يناموا ، بل أرى أيضاً لهؤلاء الذين يقضون أوقاتهم بين بحث علمى ، وقراءة وتأليف وتعليم . ثم هو قليل ونوم ، وأعتقد أن هناك عنصراً فى الحياة يتقصم وهو عنصر التأمل ، ولست أعنى بالتأمل ذلك الضرب من الأسلوب